عزيزتي بتول،
سلامات،

قرات ال «غايب» او بالاحرى عشتها، وعانيت مع اهلها، الا انني في الوقت ذاته تمتعت جداً بقرائتها لدرجة وجدت نفسي منجراً على تسجيل بعض الخواطر والتداعيات و التي جعلت استمتاعي بالكتاب يتضاعف ، اي قرائة على مستويين، العاطفي يوازي التحليلي المجرد ، وكثيرا ما تداخل المساران، مما جعلني في احيان كثيرة التوقف لاسترداد نَفَسي ونَفْسي– وقت مستقطع– حيث تعذر علي في كثير من الاحيان التجرد وانا اعيش مآسي ومحن اناس قد يكونوا اهلي او من معارفي، اناس لا حول ولا قوة ولا ذنب لهم سوى انهم وتواجدوا في محلهم الموروث، والذي تعشعش في ربوعه معالم اغنى حضارات الانسان، تواجدوا في زمن ردائتة فُرضت عليهم، ليشهدوا ونشهد معهم على تهشيم كل مقومات الوطن بدأ بالانسان والعائلة وصولاً للطابوق والتاريخ.

عندما ارتأيت تسجيل تداعيات قرائتي فكرت بالكتابة لك ، نعم لك من خلال شخص اخر غيرك ، اروم من ذلك ان اكون وسيطاً بينك وبين الاخر، سمحت لنفسي بالانطلاق، ومسترسل دون محددات في قول ما اريده للغيرعن لسانك انت، لانني وجدت في «الغايب» خصوصية متاصلة بنا البغادة، وفي جميع مقوماتها، في اللغة والمعاناة، وفي المكان والزمان ، خصوصية غير مفهومة او واضحة للغير من الناطقين بالعربية، فهم بعيدين عن استيعاب هذه المقومات، مندهشين متسائلين عن ما يحدث للعراق واهله .

اود ان اثمن وبامتنان، فسحك المجال لي في الاسترسال في تداعيات ال" غايب" والاستمتاع بقرائتها .

معاذ
ليماسول ،مايس ٢٠٠٤

xxxxxxxxxxx

بدأ بالعنوان ال «غايب»، الاسم بالنسبة للعراقيين مؤشر واضح مباشر يحمل في معناه نوع من الغَصّة، فغياب العزيز وترقب حضوره معاناة دائمية – منذ غياب الامام المهدي–، العراقيون يسمون الرجال والنساء المتزوجين باسماء اولادهم وعلى الارجح الذكور منهم، فعلي هو ابو حسين ،و محمد ابو جاسم، وعمر ابو خطاب، وقيس ابو ليلى، ومن لم يسعفه الحظ بالانجاب فهو «ابو الغايب» هذا الغائب ابداً، على الرغم من عدم اعترافهم بذلك.

لمذا لم يك العنوان «ابو غايب»؟ او «ام غايب»؟ وهما محور الهَم في الرواية، هنا ياتي المعنى الرمزي اللذي يؤشر اليه العنوان، فكل شيء في الرواية اما غائب او مُغيّب ، جميع افراد العماره لهم من هو غائب ، فدلال ومنذ سن الفطام يتيمة الابوين ، والهام صاحبتها تبحث عن امها الفرنسية التي تركتها في رعاية والدها قبل وفاته، وابو سامي يبحث عن الصداقة والصحة الغائية، الامن والسلم مُغيب من جراء القصف واضطهاد السلطة، وحتى الضمير البشري مُغيب عند بعضهم، اختياراً عند عادل واجباراً عند سعد الحلاق، المصر على مواكبة العصرنة والعولمة بتسمية مهنته ب(الكوافير) ،

الشيء الوحيد الحاضر وبقوة وابصرار هي الحرب وويلاتها، حاضرة ليس من خلال العمليت العسكرية (ما عدا سقوط الصاروخ على العمارة وجوارها، وهو تحضير لحدث اهم بكثير من سقوطه، وهو نصب سرادق الرعب)، انما الحرب حاضرة في سياق الرواية من خلال معاناة البشر اليومية، بدأ من نقص المواد الضرورية كالدواء والغذاء واقلام الكتابة (في بلد الكتابة) والالوان (في بلد اللون الفن) ، وغياب الخدمات لانقطاع التيار الكهربائي المستمر، وطوفان مجاري مياه الصرف في العمارة، وصولاً الى الاهانات التى يعانيها العراقين في نقطة التفتيش الحدودية في الرويشد الاردنية، المنفذ الشرعي الوحيد لخروجهم الى العالم في هجرتهم القسرية، نحو معانات جديدة ومن نوع اخر.

تعتبر "الغايب" من ادب زمن الحرب، وليس من ادب الحرب، احتجاج مستتر من خلال سرد مفصل لما سببتها للعراقيين من عذابات، تصلح ان تكون مرجعاً لتعدد واحصاء وفهرسة آلام واوجاع الحرب والحصار.

بتول بهذا تسجل موقف واضح حول رايها بالحروب، من دون الدخول في نقد اسباب اندلاعها او لوم مسببيها

وتحميلهم مغبة نتائجها، فالمحصلة واحدة وهي عذاب ومعاناة البشر، بل الادهى من ذلك فقدان مقومات الوطن.
يبتعد تسجيل هذا الموقف عن المباشرة السهلة، وبالتالي الارتفاع بمستوى الاحتجاج، ومن ثم تحديد مستوى الجهة المُخاطَبة المُتلقية لهذا الاحتجاج، ارتفاعاً بالمستوى السردي للاحداث، وانطلاقاً في تاليف ورسم صور لاحداث على الرغم من قتامتها الا انها ساخرة. ومعبرة عن مضمون قوي متكامل، فيها نوع من نقد وجلد للذات، يحضرني هنا ادب جماعة ال٤٧ الالمان التي تاسست لتصحيح الخلل الذي عم الثقافة الالمانية خلال الحكم النازي قبيل الحرب العالمية الثانية. وعلى الخصوص في«طبل الصفيح» لغونتر غراس (اوسكار في طبل الصفيح يتلصلص من تحت الطاوله للتفرج على التحرش الجنسي وكذلك دلال تسترق السمع من المطبخ كلما قاما ام وابو غايب بممارسة طقوسهم الزوجية) ، لل « غايب » خصوصية بغدادية في لغتها واحداثها –مكاناً وزماناً – لغها عربيه سلسة جميلة، عراقية فصيحة، نعم فصيحة تتميز عن غيرها، تخلط بين الجد والهزل، السخرية، لغة سائدة تساعد العراقيين على التعايش اليومي مع الامهم، مختلفة، نقدية احتجاجية تتعدي حدود الهزل.
اكتشفت مؤخراً وبسبب الحروب الاخيرة، هو ان مثقفي العرب بعيدين عن معرفة مكونات خصوصية العراق، لدرجة ان احد اساتذة الجامعة الامريكية في بيروت سئل طيب الذكر د. عبد الرحمن منيف، عند زيارتنا له قبل وفاته باسابيع، سئله : فيما اذا للعراق والعراقيين هوية محددة؟ كان جواب، ابو ياسر هو: ″حتي العبير في بغداد له خصوصيتة، يختلف من صوب لاخر، كرخياً ام رصافياً ، خصوصيات متنوعة مجموعها تكون الهوية″، من هنا تاتي خصوصية ال «غايب»، مشخصيها تختلف مشاربهم وخلفياتهم، ومن ثم اختلفت حكاياتهم وسوالفهم، جميعها انصهرت في بوتقة المكان ، وهو ″عمارة ام مازن″ في ساحة الفردوس التي كانت تسمى بساحة الجندي المجهول السابق، والذي هدم وغاب ال الابد، ثم احتضنت نصب القائد الضرورة والذي غاب هو ايضاً – النصب– ال الابد.
في ال «غايب» نرى المتعاكسات المتناقضة مختلطة، فالجد بالهزل– سخرية– و العلم والثقافة بالجهل والواقع بالخيال والمثابرة بالكسل، والعافية بالمرض(حيث الجميع مصابين بعلة ما، صدفية، سرطان، وتشويةفي الوجه، وغازات في الجهاز الهضمي)، وتخلط البراءة بالخسة والخيانة، والحب بالكُره (حسب وصف سعد للعلاقة بين ابو وام غايب).
السرد في ال«غايب» مشوق جداً فالحدث يصلنا بالتقسيط، نهايته في بدايه، المتلقي مخول ببناء وتاليف الحدث حسب هواه وتصوره الخاص، افقاً اخر للتخيل علي غرار الاستمتاع بالعمل الفني التشكيلي، فمنذ البداية ومن الصفحة الثانية، نبدا بكنس القشور، نتسائل اي قشور؟ قشور البيض او البرتقال؟ الى ان نصل في نهاية هذا الجزء من السرد لنكتشف انها قشور داء الصدفية المزمن المبتلى به ابو غايب، هذا الاسلوب المشوق في السرد سائد في متن الرواية مما جعل عنصر التشويق حاضر وباستمرار، تؤكده السخرية اللاذعة القاتمة للراوية دلال، سخرية مستمرة حتى في احلك المواقف قتامة، كوصفها لاثر استئصال ثدي الهام المُتسطرن بخيط تطريز.
الرواية بحد ذاتها سرد لاحداث وتسجيل لحالة البلد في زمن معين ، تتخللها حكايات لأزمان مختلفة مستقاة من التكوين الخاص بالمجتمع العراقي، مع الاستعانة بالسوالف المتوارثة والمتناقلة جيل بعد جيل، البناء السردي المتدرج هذا وفّر امكانية التقطيع من دون المس بجوهر الرواية، التقطيع على غرار حركة السينما الفرنسية "Noir et blanc" * والانكليزية "Kitchen sink drama" وآفلام المخرج "Peter Greenaway" وبالاخص في فلمه "Prospero's Books" حيث التقطيع في هذا العمل يشمل تقطيع الاطار الواحد للصوره، الشاشة، تقطيع للبرهة الزمنية الواحدة .
عمليةالتفكيك هذه (كما سماها جاك دريدا) اضفى على الرواية صفة ادبية معاصرة، و العملية هذه غير دخيلة على الادب العربي قديماً اوحديثاً ، فالتقطيع والتدوير سائد في الشعر العربي وبالتحديد في شعر التفعيلة المعاصر، وخاصة في رسم وتتالي الصور الشعرية، من هنا تمازج المحلي بالعالمي، مرتفعا بمستوى العمل ادبياً، فارزاً لنفسه موقع ضمن تصنيف وفهرسة الادب الانساني المعاصر، على غرار ادب امريكا اللاتينية الحديث .

xxxxxxxxxxxxxxxxx